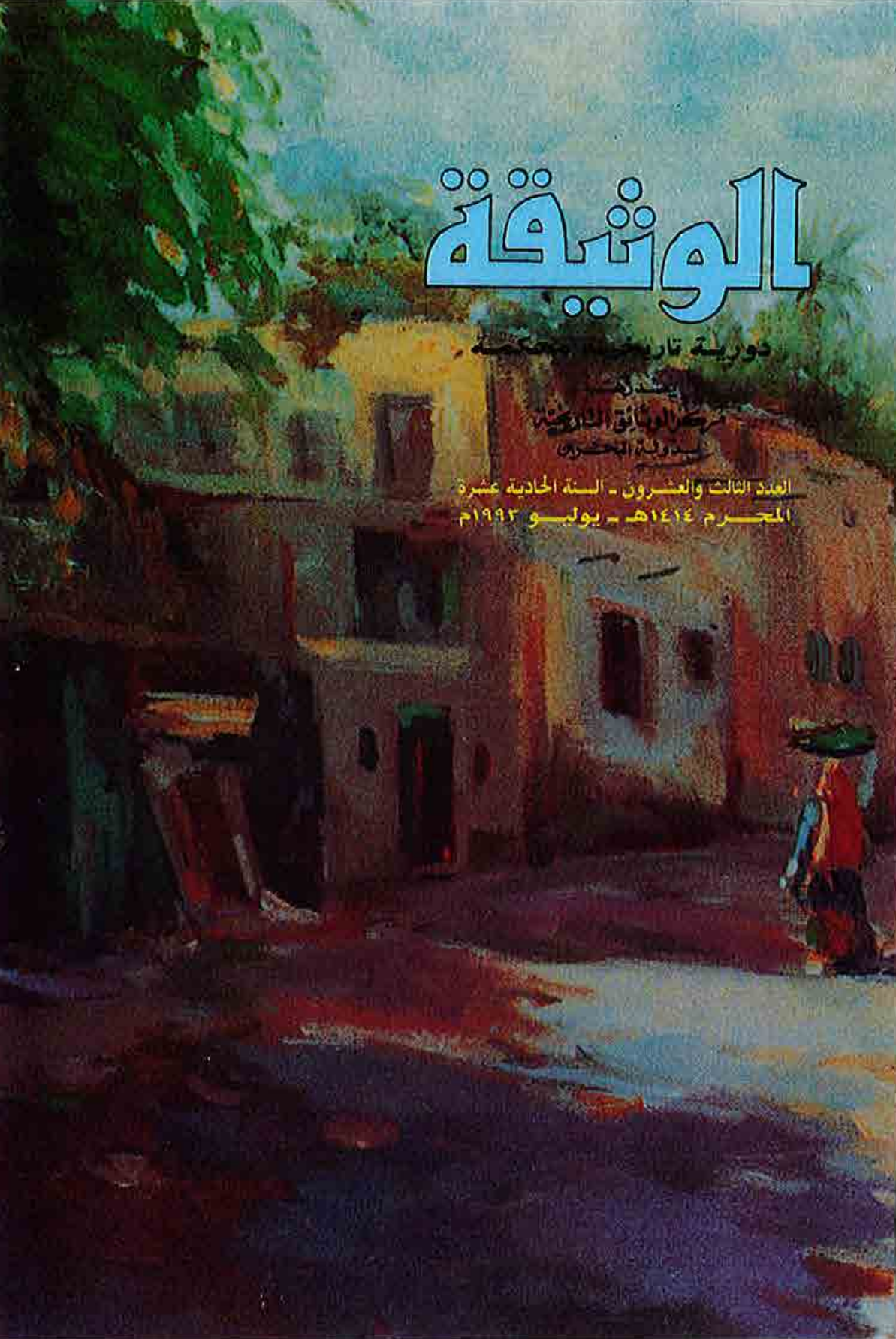
الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد الثالث والعشرون - السنة الحادية عشرة
المحرم ١٤١٤هـ - يوليو ١٩٩٣م

البرتغاليون

بين رأس الخيمة والهند

أوائل القرن السّادس عشر

بقلم الدكتور رأفت غنيمى الشيخ

كانت البرتغال جزءا من الدولة الإسلامية بالأندلس ، ولكن الأجزاء الشمالية منها هي التي إستخلصتها إمارة قشتالة المسيحية لنفسها وبقيت الأجزاء الجنوبية خاضعة للمسلمين بالأندلس . وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي تحررت الأجزاء الشمالية من سيطرة قشتالة على يد ملكها ألفونسو الأول Alfonso 1 في عام ٤٨٨ هـ الموافق لعام ١٠٩٥ م .

وقد نجح هذا الملك عام ٥٤٠ هـ الموافق لعام ١١٤٧ م في أخذ مدينة لشبونة عاصمة البرتغال الحالية ـ من المسلمين ، كما نجح الفونسو الثالث عام ٥٤٦ هـ الموافق لعام ١١٥١ م . في أخذ مناطق الغرب من البلاد التي

عرفت فيما بعد بأسم البرتغال وسميت هذه المناطق بالغرب لأنها الجزء الغربي من الأندلس الإسلامية ..

وأما أسم البرتغال فيرجع الى ما أطلقه المؤرخون على المناطق الشمالية الغربية من الأندلس باسم «بورتوكاليس» نسبة الى ميناء بورتس كالي - أي ميناء كالي والمعروف الى اليوم بأسم أبورتو ، ومن هنا جاء أسم البرتغال من بورتوجال أو بورتوكال Portogal التي أكتملت مقوماتها كدولة وطنية حديثة ذات حكومة مركزية قوية أخذت من مدينة لشبونة Lisboa عاصمة لها وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ..

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي صارت البرتغال - كما يذكر سردار بانيكار نصيرة المسيحية وراعيتها ضد الإسلام والمسلمين .. فقد كان الأيبيري المخلص لدينه المتفاني في حب وطنه أسبانيا كان أو برتغاليا يعد القتال ضد المسلمين ضرورة ماسة ويراه خليطا يجمع على حد سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية .[1] ولذلك لا نعجب أن نجد البرتغال أسبق الدول الأوروبية في الدوران حول أفريقيا لتطويق المسلمين من الخلف وهي الحركة المعروفة بحركة الكشوف الجغرافية والإستعمار ..

وفي بداية القرن الخامس عشر أصبحت البرتغال تتمتع بالإستقرار السياسي والإقتصادي تحت حكم الملك يوحنا الأول John I أحد ملوك أسرة أفيز Avis فكلف ابنه الثالث هنري Henry بغزو مدينة سبته المغربية بدعمه رجال أقوياء من التجار المغامرين والبحارة الذين رفضوا الإكتفاء بالطرق التجارية التقليدية المألوفة آنذاك وأخذوا يسيرون في طريق الإستعمار يملؤهم الحماس للغزو وجمع الغنائم والأسلاب وهدم الحصون والقلاع .[2]

ورغم أن نشاط المستكشفين البرتغاليين كان موجها في الأصل الى البحث عن طريق موصل الى الهند حيث منابع تجارة التوابل لانتزاعها من أيدي التجار المسلمين وتوصيلها الى أوروبا عن طريق البلاد الإسلامية الواقعة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط ، فان أفريقيا كانت هذا الطريق الذي يبحث عنه المستكشفون البرتغاليون طالما أراد هؤلاء تجنب الإصطدام بالمسلمين المسيطرين على طرق التجارة التقليدية من الهند الى أوروبا ..

ويرجع الى البرتغاليين الفضل في كشف السواحل الأفريقية المطلة على المحيطين الأطلسي والهندي ، إذ بدأت عملية الكشوف البرتغالية بنزول الأمير هنري الملاح ابن ملك البرتغال يوحنا الأول الى مدينة سبتة المغربية عام ١٤١٥ م ، ومنذ ذلك التاريخ ومن هذا المركز الإستعماري البرتغالي الأول في الساحل الأفريقي استمرت حركة المستكشفين البرتغاليين للدوران حول أفريقيا التي انتهت بنجاح الملاح

البرتغالي فاسكو دي جاما في الدوران حول الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية الذي أطلق عليه رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ م ، ثم واصل سيره في المحيط الهندي بمعرفة ملاح عربي من رأس الخيمة هو أحمد بن ماجد الى أن وصل الى ساحل الملبار في شبه القارة الهندية حيث بدأت أولى خطوات تأسيس امبراطورية برتغالية في الشرق ..

ومما تجب ملاحظته أنه لم يكن هدف البرتغاليين من كشف السواحل الأفريقية إقامة مستعمرات بل إقامة محطات ومراكز عند مصاب الأنهار ، ومن ثم لم يهتموا كثيرا بالتوغل داخل القارة ، وإن اهتموا بحماية مراكزهم ومحطاتهم ضد إغارات الأفارقة وكانت هذه المراكز والمحطات تقام في مناطق تصلح لرسو السفن ويمكن فيها إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوي على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة محطات ومساكن التجار البرتغاليين وخدمهم من الأفارقة .(٣)

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت البرتغال تسبق الدول الأوروبية في مجال الكشف الجغرافي والإستعمار ، وفي الاجابة على هذا التساؤل نذكر النقاط الآتية :

١ ـ سادت الروح الصليبية في البرتغال وأصبحت محركا للسياسة البرتغالية خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، مما أعطى البرتغال زعامة على العالم المسيحي في غرب أوروبا في الحرب ضد المسلمين .

٢ ـ وقوع البرتغال متاخمة لامارات إسلامية في الاندلس وفي شمال أفريقيا مما جعل الحرب مستمرة بين الامارات المسيحية والامارات الإسلامية .

٣ ـ وقوع البرتغال على شاطىء المحيط الاطلسي على مقربة من القارة الأفريقية أعطاها أهمية استراتيجية وتجارية حيث كانت عاصمتها لشبونة مركزا للتجارة الهندية والأفريقية المستوردة الى أوربا .

٤ ـ استعانة البرتغال بملاحين من جنوة نقلوا خبراتهم الملاحية البحرية الى البرتغاليين الى جانب العلماء والجغرافيين الذين استفادت منهم البرتغال في وضع المصورات والخطط لإنشاء امبراطورية برتغالية في الشرق تبدأ بأفريقيا ، وأصبح الملاح البرتغالي الى جانب إتقانه الملاحة محاربا قويا خصوصا في القارة الأفريقية المسلح أبناؤها بأسلحة بدائية أمام بارود البرتغال ومدافعهم .(٤)

وعندما حصل البرتغاليون من البابا «مارتان الخامس» على مرسوم باكتشاف الطريق الى الهند وشن الحرب ضد المسلمين عام ١٤٥٤ م زمن رحلات الأمير هنري الملاح أعلنت البرتغال امتلاكها لجميع الشواطىء الأفريقية جنوب مراكش ، في الوقت الذي كانت فيه أسبانيا تنشط في مجال الكشف والاستعمار في العالم الجديد مما أدى الى حدوث صراع بين الطرفين

لامتلاك الشواطىء والجزر الأفريقية ..

وقد استمر الصراع البرتغالي الأسباني حتى عقدت بين الطرفين معاهدة «ترود سيلاس» Trodisellas عام ١٤٩٤ م بمساعي بابا روما نصت على امتلاك البرتغال جميع الأراضي الأفريقية التي تصل اليها ابتداء من جنوب مراكش حتى الهند ، وأن تظل أسبانيا تمتلك جزر كناريا ، وأن تعترف البرتغال بمصالح أسبانيا في مراكش واستعمارها للعالم الجديد .(٥)

ويمكن أن نحدد مظاهر الكشف والاستعمار لأفريقيا والهند في النقاط الآتية :

أ ـ لم تكن أفريقيا تمثل هدفا عند البرتغاليين يصلون اليه ويحققونه ، وإنما كانت وسيلة يصلون عن طريقها الى تحقيق هدفهم الأسمى وهو احتكار تجارة الهند والسيطرة على البحار الهندية وشواطئها ، وانحصر الإهتمام البرتغالي بأفريقيا في تأمين طريق الوصول الى البحار الهندية بإقامة حصون ومحطات على الشواطىء الأفريقية الغربية والشرقية .

ب ـ لم يكن هدف البرتغاليين في البداية إنشاء مستعمرات بل إقامة محطات أو مراكز مسلحة ، ولذلك لم يهتموا كثيرا بالتوغل من الساحل الى الداخل سواء بالنسبة للقارة الأفريقية أو للهند أو حتى للخليج العربي ، ومن ثم اختاروا أماكن تصلح لرسو السفن ويمكن إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوى على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة المحطات .

ج ـ اعتنق البرتغاليون فكرة أن تجارة الهند لن تخلص لهم وحدهم إلا بالقضاء على التجار العرب والمسلمين في تلك الجهات ، ومن ثم فقد هاجموا ودمروا جميع المدن العربية والإسلامية المزدهرة على الشاطىء الشرقي لافريقيا وفي الشاطىء الغربي للهند وفي شواطىء الخليج العربي ، وأقاموا مكان هذه المدن محطات ومراكز خاصة بهم .(٦)

وبعد عودة دي جاما الى لشبونة في شهر سبتمبر عام ١٤٩٩ م بعد رحلة استغرقت حوالي عامين ، بدأت حملات البرتغاليين الحربية بقصد الغزو والإستعمار بعد مرحلة الكشف الجغرافي ، ومن ثم أرسل الملك عما نويل ملك البرتغال حملة بقيادة بدرو ألفاريز كابرال Pedro Alfares Cabral مكونة من ٣٣ سفينة غادرت لشبونة في ٩ مارس عام ١٥٠٠ م والذي وصل الى الهند واصطدم مع الزامورين حاكم قاليقوط أو كاليكوت ..

تم تتالت الحملات الإستعمارية البرتغالية فكان منها حملة فاسكو دي جاما الثانية في مارس سنة ١٥٠٢ م مكونة من ٢٠ سفينة ، والتي اتخذت مواقف عدائية من المدن والإمارات بشرق أفريقيا وبالهند حتى أنه هاجم سفينة حجاج مسلمين وأحرقهم

بسفينتهم في عرض مياه المحيط الهندي ، ثم عاد الى لشبونة في ديسمبر عام ١٥٠٣ م حاملا ثروة عظيمة سلبها من السفن العربية والإسلامية ..

ثم جاءت حملة الفونسو البوكيرك التي غادرت لشبونة في ٦ أبريل ١٥٠٣ م بهدف الانتقام من الزامورين حاكم قاليقوط ، وقد تمكن البوكيرك من تنفيذ مهمته ، ونتيجة لهذه الحملة احتلت البرتغال مركز الصدارة في التجارة الشرقية ، وبدأ الهجوم على العرب والمسلمين في البحر الأحمر والخليج العربي الذي استكمله فرانسسكو الميدا منذ عام ١٥٠٥ م ، وافونسودا البوكيرك مرة ثانية منذ عام ١٥٠٧ م حتى عام ١٥١٣ م .

أحمد بن ماجد :

للحديث عن علاقة البرتغاليين برأس الخيمة لا بد أن نتطرق الى الحديث عن أحمد بن ماجد مواطن رأس الخيمة . لماذا ؟ لأن الحديث عن دور البرتغال في الدوران حول أفريقيا للوصول الى الهند يبرز قضية هامة تدور حول من أرشد فاسكو دي جاما الى الهند وقاد الحملة البرتغالية الكشفية من «مالندي» بشرق أفريقيا الى «قاليقوط» بساحل الملبار بالهند (الساحل الغربي لشبه القارة الهندية المطل على المحيط الهندي) أهو أحمد بن ماجد هذا الملاح العماني الشهير أم أحد غيره ؟.

من هو أحمد بن ماجد ؟.. ان أسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك من أصل عربي ومسقط رأسه مدينة «جلفار» - رأس الخيمة - اشتهر بالملاحة واكتسب خبرة كبيرة في ركوب البحر بين عمان والهند وشرق أفريقيا حتى ذاع صيته ، وقد أطلق عليه لقب «أسد البحر» أو «ليث البحر» .(٧)

وأما علاقته بالبرتغاليين فترجع الى أنه عايش فترة محاولات البرتغاليين الدوران حول الطرف الجنوبي لأفريقيا ، وعندما فشل «بارثلميو دياز» الملاح البرتغالي عام ١٤٨٧ م في مواصلة السير باتجاه شرق أفريقيا بعد أن واجهته عواصف عند الطرف الجنوبي لأفريقيا انتقده أحمد بن ماجد في قصيدة من الشعر العامي تعرف بأسم «الأراجيز» جمع أرجوزة ،جاء فيها :

زلوا بها علق الموسم
في عيد ميكال بالتوهم
قام عليها موج تلك الروس
في سفالة بقى معكوس
وانقلبت أدفالهم في الماء
والسفن فوق الماء يا خائي
غرقا يرون بعضهم لبعض
وكن عارفا موسم تلك الأرض .(٨)

وعندما وصل فاسكو دي حاما الملاح البرتغالي الذي نجح في الدوران حول الطرف الجنوبي لأفريقيا وأطلق عليه أسم رأس الرجاء الصالح - كما ذكرنا - الى مدينة «مالندي» بشرق أفريقيا في ١٥ مارس عام ١٤٩٨ م

شغل نفسه بالبحث عن ملاح من هذه المنطقة ليقود رحلته في المحيط الهندي ، وكان ملك «مالندي» يشعر بالود نحو الأفرنج ، فأشار على فاسكو دي جاما بأخذ أحمد بن ماجد مرشدا وقائدا المرحلة ..

وقد رضى فاسكودى جاما كل الرضا عن أحمد بن ماجد خاصة بعد التحدث معه وبعد أن عرض أحمد بن ماجد عليه خريطة لكل الشواطىء الهندية مرسومة بكل وضوح وعندما عرض دى جاما علي ابن ماجد « اسطرلابا » كبيرا من الخشب كان قد أحضره معه ، وكذلك اسطرلابات معدنية أخرى لقياس ارتفاع الشمس والنجوم لم يندهش ابن ماجد وقال ان الملاحين العرب يستخدمون أجهزة مثلثية ومربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس وخصوصا النجم القطبى ، كما أنهم يستخدمون أجهزة أخرى غير الاسطرلاب ، وقد عرضها ابن ماجد مما جعل دي جاما يعتبر ابن ماجد ثروة كبيرة[٩] .

ركب أحمد بن ماجد سفينة القيادة فى حملة فاسكودى جاما الاولى الى الهند وقاد الرحلة التى أبحرت من « مالندى » في ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨م متجهة الى الهند فوصلت « قاليقوط » أو « كاليكوت » على الشاطىء الغربي لشبه القارة الهندية فى ٢٠ مايو من نفس العام ، أى بعد حوالى شهر ، ولأول مرة وبفضل خبرة أحمد بن ماجد الملاح العربي الخليجي تمهد الطريق البحرى من أوروبا الى ثروات الشرق الأقصى التى كان الاوروبيون يتحرقون شوقا اليها ، وإن كان لهذا الحدث تأثير مضاد على الشرق ، فالشعوب المطلة على المحيط الهندى قاست بعدها من ويلات القراصنة والمختلسين والمستغلين ذوى المآرب الهادفة الى الغنى عن طريق الثروة الموجودة على اليابسة ، وكل هذا مصحوب بإرساء قواعد السيطرة البرتغالية فى المنطقة الممتدة من شرق أفريقيا الى الهند[١٠] .

ونتيجة لأفعال البرتغاليين فى شرق أفريقيا وفى الخليج العربي وفي الهند من أعمال تتصف بالبربرية كقتل الناس وتدمير المدن المزدهرة ، فقد شعر أحمد بن ماجد بتأنيب الضمير على قيامه بارشاد سفن حملة فاسكودى جاما من شرق أفريقيا الى الهند وقد سجل مشاعره الحزينة هذه فى صورة شعرية تنطق مصورة أعمال المستبدين البرتغاليين كما تنطق بعذاب ماجد المضحوك عليه والحسرة والندم على ما أقدم عليه والنقمة والغضب على البرتغاليين .

وقد جاء فى شعره :

وجالكاليكوت خذ ذي الفايدة
لعام تسعماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما
والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام
والناس في خوف واهتمام
وانقطع المكى عن ارض السامرى
وشد جرد افون للمسافرى

وخبرني ما حمله الفرنجي
من جانب السودان شط اللجى
وهو الذي قد قهر المغاربة
واند لس في حكمه مناسبة[11]

وهكذا يتضح ان أحمد بن ماجد الملاح العربي ، هو الذي قاد سفن حملة فاسكودى جاما الأولى من شرق أفريقيا الى الهند ، ولا يمكن القاء اللوم على ابن ماجد لما قام به نحو البرتغاليين فلم يكن يعلم أن هذه الحملة مقدمة لحملات عسكرية معادية للعرب المسلمين فى هذه المناطق سواء في الجزيرة العربية أو في شرق أفريقيا أو في الهند .

كما لا يمكن لنا الموافقة على ما جاء فى مخطوط « قطب الدين النهر والى » كاتب القرن السادس عشر من أن كبير الفرنج (فاسكودى جاما) صاحب أحمد بن ماجد وعاشره فى السكر فأعلمه الطريق الى الهند فى حالة سكره ، اذ لا يعقل أن يقوم ملاح بارشاد وقيادة سفن وهو في حالة السكر[12] .

وكان ابن ماجد ينحدر من أسرة عمل معظم أفرادها بالملاحة ، فاذا كان قد أطلق على نفسه لقب « المعلم » فقد كان أبوه وجده « معلمين » ، والمعلم في مصطلح أهل البحر الشخص الذي له المام تام بالسفن أو بغاطسها اذا كان كبيرا أو صغيرا وله دراية بعلم الفلك ، وقدرة على تحمل المسئولية فى قيادة السفينة وسلامتها وأمن من معه من العاملين على السفينة ، كما يكون على معرفة بمواقع الموانى والشواطىء المختلفة والجزر والشعب المرجانية والمياه الضحلة والهضاب والجبال ، وعليه ان يكون آخر من يترك السفينة فى أى ظرف كان[13] .

وإذا كان أحمد بن ماجد قد أرخ لقدوم فاسكودى جاما الى مالندى والهند عام ٩٠٦هـ الموافق لعام ١٤٩٨م ، فقد ذكر عن قدوم الحملات البرتغالية بعد ذلك وخاصة عامى ١٥٠٠ و ١٥٠١م فيقول :

وبعد ذا من عام تسعماية
وست جاءوا الهند يا اخاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا
وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا
ذا حاكم أو سارق مجنونا
وتضرب السكة وسط البندر
بندر كاليكوت بين السفر
يا ليت شعرى ما يكون منهم
والناس معجبين من امرهم[14]

وهكذا أثبت أحمد بن ماجد قدرته على متابعة الاحداث منذ مقابلته لفاسكودى جاما في مدينة مالندى الأفريقية ومصاحبته إياه في رحلته الأولى الاستكشافية الى ساحل الملبار بالهند ثم متابعة ما أحدثه البرتغاليون من سلوك يتنافى مع التحضر الذي ادعوه عند قدومهم حين هاجموا المدن الاسلامية والسفن الاسلامية سواء بشرق أفريقيا أو في البحر الاحمر والبحر العربي أو في ساحل الهند الغربي أو في الخليج العربي .

ورغم أن أحمد بن ماجد أرشد

البرتغاليين الى طريق الهند ، فإنه لم يكن يعرف الا أنهم جاءوا للتجارة ولم يكن يعلم نواياهم الشريرة ضد العرب والمسلمين ، ويكفى ابن ماجد فخرا أنه المواطن الخليجي ، الذي ينتسب الى جلفار - رأس الخيمة - شهرته الملاحية فى ركوب البحر لمدة ذكرها فى أراجيزه تزيد عن خمسين عاما .

رأس الخيمة (الخليج العربي)):

رأس الخيمة أقيمت مكان مدينة جلفار القديمة ، وقد أخذت رأس الخيمة مكان جلفار في زعامة البحر ، أى أن رأس الخيمة حلت محل جلفار اسما ومعنى[١٥] . وتقع أطلال جلفار القديمة شمال رأس الخيمة بين الرمس والمعيرض ، ولها ذكر في الفتوح الاسلامية لفارس واليها ينسب الملاح العربي الشهير أحمد بن ماجد ، كما سبق أن ذكرنا .

ومن الناحية الجغرافية فإن رأس الخيمة هى أولى المشيخات من ناحية الشرق أو بالأحرى هى أقصى جزء من المشرق العربي ، وتقع بين خطى عرض ٢٥ و ٢٦ شمالا وخطى طول ٥٥,٥٥ شرقا ، وتطل على مشارف مدخل الخليج العربي ، ومضيق هرمز باب السلام ، وتكثر فيها المزارع والبساتين والاشجار البرية التى تضفى على المنطقة جمالا طبيعيا تجتذب سكان الساحل العمانى ، وتتمتع مدينة رأس الخيمة بمركزمهم على الساحل العمانى من حيث الموقع والطبيعة الجغرافية اذ يشق المدينة لسان مائى عميق (خور) يعتبر ملجأ للسفن ومراكب الصيد .

وتوجد برأس الخيمة عدة أثار لها جذورها التاريخية منها حصن ضابة ، وهو حصن جبلى يقع في المنطقة الجبلية الى الشرق من بلدة الرمس ، ومنها قصر الزباء الذي يقع فوق مرتفع جبلى أيضا ومن بقاياه أجزاء من السور المحيط وبعض البرك وخزانات المياه ، واحدى الغرف والقاعات .. ومنها أثار مدينة جلفار الباقية بعد معارك الاساطيل الغازية للمدينة[١٦] .

وقد تعرضت رأس الخيمة (جلفار) للغزو من جانب البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر بعد ما سيطروا على مياه المحيط الهندى فى اطار الهجوم على مملكة هرمز الاسلامية المزدهرة وبقية مشيخات الخليج ، فقد كانت مملكة هرمز تقع عند مدخل الخليج العربي في اتصاله بالمحيط الهندى وتضم جزيرة هرمز وما يحيط بها من جزر صغيرة بالاضافة الى الشريط الساحلى العربي المواجه لها ..

وكانت سياسة الفونسو البوكيرك الاستعمارية تقوم على أساس ان استخلاص الهند للبرتغال وحدها لن يتحقق الا بالقضاء على الكيانات العربية والاسلامية بالخليج العربي والبحر الاحمر ومن ثم حاول الاستيلاء على مسقط عام ١٥٠٧م ثم

تحول الى هرمز حتى انتصر على ملكها وفرض عليه دفع اتاوة سنوية للبرتغال ، وفي عام ١٥١٥م أصبح للبرتغال قلعة فى هرمز تشرف على مدخل الخليج وتؤكد سيطرة البرتغال على هرمز . وبناء القلاع البرتغالية يحقق استراتيجية البوكيرك الرامية الى السيطرة على المناطق الافريقية والهندية والخليجية دون أن تتحمل البرتغال تكاليف أنشاء مستعمرات ..

واتبع البوكيرك سياسة عدوانية تخريبية ضد السفن والموانى العربية ، خاصة بعد أن استولى على سوقطرة الواقعة بالقرب من مدخل البحر الاحمر الجنوبى عام ١٥٠٧م وأقام بها حصنا عسكريا للبرتغاليين يهاجمون منه السفن العربية المتجهة للبحر الاحمر ، ويهاجم الساحل العربي الجنوبى حتى رأس الحد بالساحل العمانى الذي كان خاضعا لسيادة مملكة هرمز فهاجمه وأضرم النار فيه وأغرق سبع عشرة سفينة كانت راسية بميناء رأس الحد ، ثم هاجم مدينة مسقط وضربها بالمدافع فأحرق كثيرا من مبانيها ومسجدها وجميع السفن الراسية بالميناء ، وأخذ من أهلها أسرى كثيرين استخدمهم فى سفنه وترك الاطفال والنساء والرجال الضعاف بعد أن شوههم أوجدع أنوفهم وقطع أذانهم . وكانت مسقط تخضع لمملكة هرمز وتدفع جزية لملك هرمز[١٧] .

وكان الهجوم البرتغالى على مسقط - رغم عدم الاستقراربها - بمثابة إنذار لمملكة هرمز التى قاومت ما وسعتها المقاومة حتى اضطرت لتوقيع اتفاق مع البوكيرك كما ذكرنا يدفع بموجبه ملك هرمز اتاوة سنوية ويسمح باقامة حصن برتغالى فى أراضى المملكة . وكان هذا الاتفاق بداية سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج ، تلك السيطرة التى استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، على الرغم من الثورات التى لم تتوقف من الأهالى وسكان الساحل العربي المواجه للجزيرة .

وبعد عام ١٥١٥م تأكدت السيطرة البرتغالية على مملكة هرمز ، ونجح البوكيرك فى هذه السنة في الاستيلاء على جزيرة قشم الى جانب جزء من ساحل فارس . الى الشمال والشمال الغربي من هرمز وذلك من أجل تقوية مركزه في الخليج ولتأمين التموين من مياه الشرب والمواد الغذائية للقاعدة البرتغالية فى هرمز[١٨] وبذلك سيطر البرتغاليون على الموانى الرئيسية على جانبى الخليج ، فكانت هرمز على الجانب الفارسى ومسقط والبحرين على الجانب العربى قواعد ارتكازهم الاساسية الى جانب السيطرة على مياه الخليج واحتكار الابحار فيه وأخذ البرتغاليون ينظمون العمليات التجارية فى المنطقة بإجازات يمنحونها ، ويتحكمون فى مدخل الخليج عن طريق قلاعهم القوية فى هرمز ولهذا أصبح من المتعذر على أى من مشيخات الخليج وأقطاره تحدى قوة البرتغال البحرية خلال تلك

الفترة[١٩] .

وتأكيدا للسيطرة البرتغالية فى المنطقة فقد نقل البوكيرك مركز القيادة والسيطرة من كوشين الواقعة جنوب ساحل الملبار الى ميناء جوا Goa الواقع وسط هذا الساحل والذي أصبح منذ عام ١٥٠٩م قاعدة البرتغاليين الرئيسية فى شبه القارة الهندية ومن هذا الموقع اندفعوا أكثر ناحية الشرق الى جزر التوابل (اندونيسيا والملايو) ليؤسسوا لمائة السنة التالية احتكارا لتجارة التوابل مع أوروبا قائما على المحطة التجارية الكبرى التى أسسوها فى ملقا Malacca[٢٠]. منذ عام ١٥١١م .

ومنذ نقل البوكيرك مقر إدارة الممتلكات البرتغالية فى الشرق الى ميناء جوا عام ١٥١٠م ازدادت التوسعات البرتغالية المقرونة بالارهاب والقسوة ، مما جعل سلطان كجرات الهندى يوافق على اقامة محطة برتغالية تجارية وحصنا للبرتغاليين فى ديو ، كما عقدت كاليكوت صلحا معهم وسمحت لهم باقامة قلعة فى أراضيها ، ومن جوا اتجه الى احتلال ميناء ملقا ـ كما ذكرنا ـ الذي يعد من أهم الموانى التجارية فى العالم حيث كانت أهم المراكز لتجميع منتجات الهند الشرقية وغيرها من مناطق الشرق الاقصى حتى الصين شرقا[٢١] .

وكان البوكيرك قد حدد النقاط الرئيسية التى تكون قواعد امبراطوريته الجديدة والتى تتمثل ـ هذه المراكز ـ فيما يلى :

١ ـ هرمز للسيطرة على منافذ الخليج العربي .

٢ ـ سوقطرة أو عدن للسيطرة على مدخل البحر الاحمر الذي كان يمثل طريق الاتصال مع أوروبا عن طريق برزخ السويس .

٣ ـ ملقا للسيطرة على مضيق ملقا بحيث تتم مراقبة كل السفن الذاهبة أو القادمة من المحيط الهندى والشرق الاقصى .

٤ ـ سيلان وجوا في الهند لتكون مركز القيادة والمراقبة والادارة للحكام البرتغاليين في المنطقة[٢٢] .

وكانت السيطرة على الخليج العربي ـ كموقع متوسط ـ تمثل أهمية كبرى للبرتغاليين ومن ثم تضررت أقطاره من السياسة البرتغالية الارهابية القاسية ومنها مدخل الخليج حيث موقع رأس الخيمة الحالية .

الهند :

كانت الهند معروفة لدى أوروبا منذ أقدم عصور التاريخ ، وما وصول الاسكندر الاكبر الى هذه البلاد سوى دليل معرفة الأوروبيين بالهند وحضارتها القديمة ، ولذلك لاريب ان وصول فاسكودى جاما الملاح البرتغالى على رأس حملة بحرية الى ميناء كاليكوت على الشاطىء الجنوبي الغربي للهند فى ٢٧ مايو عام ١٤٩٨م

يسجل نقطة تحول فى تاريخ بلاد الهند وأوروبا[٢٣] .

وفي كاليكوت استقبل حاكمها الزامورين فاسكودى جاما ورجاله متسائلا عن سبب مجيئهم الى بلاده فأجاب فاسكودى جاما بإيجاز « المسيحية ثم البهارات » ولذلك عندما عاد الى لشبونة بحملته كانت سفنه محملة بشحنة كبيرة من البهارات والاحجار الكريمة ، ثم عاد البرتغاليون في السنوات التالية وأنشأوا أول مستعمرة لهم في « كوشين » الى الجنوب من كاليكوت . وكان مجيء فاسكودى جاما الى كاليكوت قبل دخول بابر الى دلهى بنحو ثلاثين سنة[٢٤] .

وكان يحكم الهند فى تلك الفترة ملوك الطوائف بعد غزو تيمور لنك لشبه الجزيرة الهندية عام ١٣٩٨م الذي ادى الى تفكك الدولة الاسلامية التى بدأ تأسيسها على يد محمود الغزنوى أواخر القرن الرابع الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، والتى أصبحت فى أيدى الغوريين في القرن السادس الهجرى الموافق للقرن الثانى عشر الميلادى ، ثم المماليك وأولهم قطب الدين أيبك أوائل القرن السابع الهجرى الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى ، وغير هؤلاء مثل الخليجيين وال تغلق حتى ظهور ملوك الطوائف أوائل القرن التاسع الهجرى الموافق لأوائل القرن الخامس عشر الميلادى .

ويهمنا من امارات الهند تلك التى كان لها علاقات بالبرتغال ، وأعنى تلك الواقعة غرب شبه القارة الهندية على ساحل الملبار ، ومن هذه الامارات « الكجرات » التى تعد ثانى امارات الهند الاسلامية بعد « دهلى » حيث كانت باب التجارة الهندية الغربي منذ القدم ومنفذها الى أفريقية وآسيا ، فمن شاطئها عند « سورات » وخليجها « كمباى » كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة الى اوروبا عبر الخليج العربي والبحر الاحمر .

والى سلطان الكجرات محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، الذي يعد أعظم حكامها يرجع الفضل في مقاومة الوجود البرتغالى بساحل الهند الغربي ، ذلك الوجود الذي كان معاديا للاسلام والمسلمين ، مما دفع بالسلطان محمود أن يستنجد بالسلطان المملوكى قانصوه الغورى فى مصر لمحاربة هؤلاء الدخلاء الذين كانوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج[٢٥] .

وكانت الهند خلال القرن الخامس عشر منقسمة يتنافس حولها سلاطين الأتراك والافغان ويحتفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة ، وبعد أن تمكن « بابر » الحفيد الخامس لتيمور لنك - من مد حكمه من « سمر قند » الى « كابل » الى « دهلى » اصبحت كل الهند تحت حكمه وحكم حفيده « أكبر » ما عدا أقصى جنوب شبه

القارة الهندية فأصبح الخان الاعظم ، وبذلك تمكن أحفاد المغول من حكم الهند ، التى صارت امبراطورية المغول الكبرى التى بلغت مساحتها مليون ونصف مليون كيلومتر مربع وبلغ عدد سكانها مليون نسمة[٢٦] .

وكان ساحل شبه القارة الهندية الغربي يخضع لبعض الأمراء الصغار وهى المنطقة المعروفة بأسم « ملبار » أو « كيرالا » الممتدة من « منجالور » الى «رأس قومورين » وهى منطقة الفلفل المثلى التى ظلت السفن زهاء ألفى سنة من الزمان تقلع منها دون توقف الى الخليج العربي والبحر الاحمر وكان أهم حاكم بتلك المنطقة هو الزامورين صاحب كاليكوت التى كانت المركز الاساسى لتجارة التوابل سواء المنتجة من شبه قارة الهند أو المنقولة اليها من جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى وكل ذلك جعل كاليكوت تعيش عصر رخاء .

وبسبب موقع كاليكوت استفادت من الرياح الموسمية فى منطقة المحيط الهندى كما كان لها علاقات بتجار القاهرة والاسكندرية ومدينة فاس المغربية ، ورغم أن الزامورين كان هندوكيا الا أن علاقته بالمسلمين كانت جيدة ، ولذلك كان له دور مع المسلمين فى مقاومة الوجود البرتغالى فى المياه الهندية ذلك الوجود الارهابي الذي مثله كل من فاسكودى جاما في رحلته الثانية وكابرال وفرنسسكو أليدا وافونسودا ألبوكيرك[٢٧] .

وذلك أنه نتيجة للروح العدائية الصليبية التى يكنها البرتغاليون للمسلمين فقد استجاب السلطان المملوكى قانصوه الغورى سلطان دولة المماليك فى مصر والشام الى دعوة الامراء الهنود والعرب فأقام ترسانة بحرية فى السويس لاعداد اسطول يتجه الى المياه الهندية للتعامل مع الغزو البرتغالى للمنطقة ، الى جانب انشاء دور ـ للصناعة فى كل من الروضة وبولاق بمصر[٢٨] .

وعندما تهيأت القوة للقتال التى أمر الغورى باعدادها عين لقيادتها الأمير حسين الكردى ، وخرجت من القاهرة فى ٦ جمادى الآخرة عام ٩١١هـ الموافق لعام ١٥٠٥م الى بلاد الهند لمحاربة البرتغاليين واجلائهم عن المراكز التى نزلوا بها فى الشواطىء الهندية ، الى جانب تحصين ميناء جدة وعدن وسواكن وعندما وصلت الحملة الى الهند تحالف الامير حسين الكردى مع بعض الامراء الهنود مثل أمراء كجرات وبيجامور وأحمد ناجايال وكاليكوت وكمران واستطاعوا الحاق الهزيمة بالبرتغاليين فى شوال ٩١٤هـ الموافق لعام ١٥٠٨م ، ولكن التحالف المملوكى الهندى استقر بجزيرة ديو حيث فاجأهم فرنسسكو أليدا بهجوم خاطف انتصر فيه على هذا التحالف فى ٣ فبراير ١٥٠٩م الموافق لعام

٩١٥هـ ، واضطر الامير حسين الكردى للانسحاب بما سلم من سفنه الى جدة[٢٩] .

وكان للخيانة دور في هزيمة التحالف المملوكى الهندى وقد تمثلت الخيانة فى أن «مالك إياس» وهو أوروبي حاكم ديو من قبل ملك جوجيرات (أو كجرات) انضم سرا الى البرتغاليين وحرم الامير حسين الكردى من المدد والمؤن ، فأضطر حسين الكردى أن يعتمد فى مدده على سفن الزامورين ونتيجة لانسحاب حسين الكردي بعد هزيمة ٣ فبراير ١٥٠٩م تأكدت ادعاءات البرتغاليين بأنهم سادة الملاحة في البحار الشرقية[٣٠] . واستمرت سياسة البرتغاليين فى محاربة الاسلام والمسلمين متعاونين فى ذلك مع بعض الامراء الهندوس ، ومن ذلك تأخر سقوط ديو تحت سيطرة البرتغاليين الى عام ٩٤٢هـ الموافق لعام ١٥٣٥م . وبعد معركة ديو تم تعيين إفونسودا البوكيرك نائبا للملك البرتغالى في كوشين بدلا من فرنسسكو الميدا[٣١] .

تعليق :

وهكذا يتضح الدور البرتغالى الاستعمارى فى الشرق سواء بشرق أفريقيا أو في الهند مرورا بالبحر الاحمر والخليج العربي ، وحيث كان هذا الدور البرتغالى معاديا للاسلام والعرب فقد قاسى منه عرب الخليج كما قاسى منه مسلمو شرق أفريقيا وشبه القارة الهندية ، واستمرت هذه المعاناة أكثر من قرن ونصف حتى تم إجلاء البرتغاليين عن منطقة الخليج العربي وإن ظلوا يعتبرون مدينة جوا الهندية مركزا استعماريا لهم حتى الربع الأخير من القرن العشرين .

وإذا كانت مدينة رأس الخيمة بزعامة القواسم قد ظهرت ككيان سياسى منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادى فإن تاريخها القديم شاهد على وجودها وإن كان باسم جلفار ، ذلك الاسم الذي حمل شهرة أحد أبنائه ليث البحر شهاب الدين أحمد بن ماجد الملاح الذي ذاع صيته طوال القرن الخامس عشر الميلادى ، وعندما نتابع نشاط الملاحين القواسم فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فى عملياتهم البحرية الجريئة التى نعرفها بأسم الجهاد البحرى الاسلامى ضد السفن المعادية للاسلام والمسلمين ، نتذكر احمد بن ماجد ومن جاء من بعده في مواجهة الارهاب البرتغالى فى الخليج العربي والمحيط الهندى .

وعندما نلاحظ الآن توترا بين المسلمين والهندوس في شبه قارة الهند نتذكر تلك الايام الخوالى قبل وأثناء الغزو البرتغالى لساحل الملبار بالهند واتفاق الهندوس مع البرتغاليين ضد المسلمين

د. رافت غنيمي الشيخ
استاذ التاريخ الحديث المعاصر
جامعة الزقازيق - مصر

الهوامش

١ ـ ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ـ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٥ .
٢ ـ جيمس دفي ترجمة الدسوقي حسين المراكبي : الإستعمار البرتغالي في أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٣ .
٣ ـ د . رافت غنيمي الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤ .
٤ ـ د . زاهر رياض : استعمار أفريقيا ص ٢٢ .
٥ ـ د . رافت الشيخ : أفريقيا في التاريخ المعاصر ص ١٩ .
٦ ـ د . رافت الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤ ـ ٥٥ .
٧ ـ أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار ص ٨٤ .
٨ ـ نفس المرجع ص ٤٠ .
٩ ـ د. رافت الشيخ : افريقيا في التاريخ المعاصر ص ٢١ .
١٠ ـ أحمد بن ماجد : المرجع السابق ص ٨٦ ـ ٨٧ .
١١ ـ نفس المرجع ص ٤٣ .
١٢ ـ نفس المرجع ص ٨٧ .
١٣ ـ د . حسين أمين : أحمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية . من أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ـ اغسطس ١٩٨٧م .
١٤ ـ أحمد بن ماجد : المرجع السابق ص ٨٨ .
١٥ ـ سالم بن حمود السيابي : ايضاح المعالم في تاريخ القواسم ، مراجعة أحمد التدمري ـ رأس الخيمة ١٩٧٦م ص ١٩ .
١٦ ـ نفس المرجع ص ٢١ ـ ٢٧ .
١٧ ـ وزارة الاعلام والثقافة مسقط : عمان وتاريخها البحري ص ٥٨ .
١٨ ـ لوريمر : دليل الخليج . مجلد أول .
١٩ ـ .
٢٠ ـ المرجع السابق ص ٢١ .
٢١ ـ د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) القاهرة ١٩٧٤م ص ٦٧ .
٢٢ ـ محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج

العربي ـ جذوره التاريخية وابعاده . القاهرة ١٩٨٤م ص ١٣٠ .

٢٣ ـ ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ١٩ .

٢٤ ـ محمد مرسي أبو الليل : الهند تاريخها ، تقاليدها ، جغرافيتها ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٧٧ .

٢٥ ـ أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم جزآن ، القاهرة ١٩٥٧ جزء أول ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

٢٦ ـ د . جلال يحيى : التاريخ الأوروبي الحديث ، الاسكندرية ، ص ٣٩٢ .

٢٧ ـ ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ٣٦ ـ ٤٢ .

٢٨ ـ د . أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام جامعة بيروت ١٩٧٢ ص ٢٢٣ .

٢٩ ـ د . محمد عبدالعال : البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، الاسكندرية ١٩٨٠ ص ٤٩٨ .

٣٠ ـ ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ٤٤ .

٣١ ـ د . السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٦٤ .

كاظمة
لأرشفة التراث الخليجي

المراجع

١ ـ صالح محمد العابد : دور القواسم فى الخليج العربي ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠م . بغداد ١٩٧٦ .

٢ ـ سالم حمود السيابي : إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم . مراجعة أحمد التدمرى رأس الخيمة ١٩٧٦م

٣ ـ محمد مرسى أبو الليل : الهند ، تاريخها ، تقاليدها ، جغرافيتها ، القاهرة (الألف كتاب) ١٩٦٥م .

٤ ـ ك . م . بانيكار ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد مراجعة أحمد خانكى : آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة ١٩٦٢م .

٥ ـ د . أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم جزآن ، القاهرة ١٩٥٧م .

٦ ـ جيمس دفى ترجمة الدسوقى حسين المراكبى : الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا القاهرة ١٩٦٣م .

٧ ـ د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥م) القاهرة ١٩٧٤م .

٨ ـ د . أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، جامعة بيروت ١٩٧٢م .

٩ ـ د . محمد عبدالعال : البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه الاسكندرية ١٩٨٠م .

١٠ ـ د . رأفت غنيمى الشيخ : أفريقيا فى العلاقات الدولية ، القاهرة ١٩٧٥م .

١١ ـ د . رأفت غنيمى الشيخ : أفريقيا فى التاريخ المعاصر القاهرة ١٩٨٥م .

١٢ ـ د . زاهر رياض : استعمار أفريقيا القاهرة ١٩٧٢م .

١٣ ـ أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار . مخطوط تحقيق المستشرق الروسى شوموفسكى ترجمة وتعليق د . محمد منير مرسى القاهرة ١٩٧٤م .

١٤ ـ د . حسين أمين : أحمد بن ماجد وجهوده فى الملاحة البحرية ، من ابحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية اغسطس ١٩٨٧م .

١٥ ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ مسقط سلطنة عمان ـ عمان وتاريخها البحرى .

١٦ ـ لوريمر : دليل الخليج ـ القسم التاريخى ـ الجزء الاول : تعريب ونشر الديوان الاميرى القطرى .

١٧ ـ محمد عدنان مراد : صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربي ، جذوره التاريخية وأبعاده ، القاهرة ١٩٨٤م .